أربعة صنعوا أسداً

«منذ آلاف السنين كان أحد الملوك ويدعى «دهارانيفاها» – يجلس على عرش دولة الأزهار. وفي إحدى مقاطعات دولته واسمها «ابراهماستالا»، عاش برهمي يدعى «فيشنوسفامين». وكان لذلك البرهمي زوجة تتفق معه في كل صفاته، كما تتفق إبتهالات «سفاها» [٦] مع نار الذبيحة!.. وقد رزق الزوجان بأربعة أبناء، تدرجوا في التعليم، حتى إذا ما إنتهوا من دراسة علم «الفيدا»، وقد بلغوا طور الرجولة، رحل أبوهم «فيشسنوسفامين» إلى السماء، ثم لحقت به زوجته، تاركين خلفهما أبناءهما دون أي خبرة في الحياة، وقد كانوا على درجة كبيرة من البساطة والسذاجة، ومن ثم لم يكن من المستغرب أن يقعوا ضحية غفلتهم وأن ينهب أقاربهم كل ميراثهم!.

وقد إجتمعوا سوياً –ذات مرة– ليتشاوروا بشأن ما وصل إليه حالهم، فاستقر رأيهم على أنه لم يعد بوسعهم المكوث في بلدتهم، وأنه من الأفضل لهم أن يولوا وجوههم صوب قرية «ياجناسهالا»، حيث ينزلون في ضيافة جدهم لأمهم.. وبالفعل، ما أن أشرقت شمس الصباح حتى حملوا متاعهم وشدوا رحالهم إلى تلك القرية. وبعد أن ساروا أياماً طويلة –كانوا خلالها يتسولون طعامهم من عابري السبيل– وصلوا إلى

---

(٦)إحدى الإبتهالات التي كانت تصاحب تقديم النذور في الإحتفالات الفخمة التي يقيمها البرهميون.

منزل جدهم، بيد أنهم بوغتوا بأن جدهم هذا قد مات، وأن أولاد خالهم قد إستولوا على منزله.. وقد أكرم أولاد الخال في أول الأمر وفادتهم، فقبع الأولاد الأربعة في المنزل، مستمتعين بأطايب الطعام ولذيذ الشراب.

ولكن الشهور مضت، ولم يبد على أولئك أن في نيتهم العمل لكسب قوتهم، وكأنما إستمرأوا حياة الدعة والكسل، فلم يلبث أقاربهم أن ضاقوا ذرعاً بهم، وتغيرت معاملتهم لهم وصاروا يوجهون إليهم قارص اللوم ولاذع الكلم. وعندئذ سرى القلق والإضطراب إلى صدور الأخوة الأربعة، فعقدوا –فيما بينهم– إجتماعاً ناقشوا فيه حالهم. فقال الأخ الأكبر: «ماذا نستطيع أن نفعل يا أخوتي؟ إن الإنسان –في هذه الدنيا– مسير لا مخير، وكلمة القدر هي العليا، فليس للمرء حيلة في أي شيء. ومثال ذلك أنني بينما كنت أتجول اليوم قانطاً، على غير هدى، قادتني قدماي إلى أرض محرقة، وهناك وقت عيناي على جثة منتنة، فقلت لنفسي: «ما أسعد هذا الرجل!.. لقد ألقى عن كتفيه ثقل الهموم والأحزان فإستراح!».. وفي هذه اللحظة خطرت بذهني فكرة الإنتحار، فشرعت على الفور في تنفيذها، وربطت حبلاً بأحد الأشجار، ثم لففت عقدته حول عنقي، ولم ألبث أن رحت أتأرجح في الهواء. ولكنني، قبل أن تفارق الروح جسدي، إنقطع الحبل فسقطت على الأرض فاقد الوعي. حتى إذا أفقت رأيت رجلًا يرطب جبيني بقطنة مبللة من النسيج. فما رآني أفتح عيني حتى قال لي: «لماذا تفقد الأمل ياصديقي؟ ألا تعلم أن الشؤم من التشاؤم ، وأن الحياة لا تبتسم إلا للمتفائلين، بينما تولى

ظهرها الذين لا يولونها ثقتهم إليك نصيحة لا تخيب أبداً: إذا ألمت بك كارثة فإصنع لغيرك خيراً، وعندئذ سترى أبواب السعادة قد فتحت لك ذراعيها. فهل تطيعني في ذلك؟ أم لعلك مشتاق لأن تتلظى بسمير النار، التي لابد أن تتردى في جحيمها، إذا إرتكبت جريمة الإنتحار؟!».

«ولم يتركي الرجل إلا بعد أن تأكد من أنني قد أقصيت عن ذهني فكرة الإنتحار تماماً، فعدت إلى المنزل.. ذاك لأن القدر إذا عاند إنساناً، فليس بوسعه أن يحقق شيئاً، حتى ولا التخلص من الحياة!.. وهكذا لم يعد أمامي بصيص من الأمل. فعزمت على التوجه إلى الأراضي المقدسة كي أحرق هناك نفسي بنار الندم والتوبة، ناسياً ما أنا فيه من فقر ومسغبة!».

وإذ ذاك هتف أخوته قائلين: «ولكن، لماذا نقاسي آلام الفقر وقد أوتينا عقلًا نفكر به؟ ألا تعلم أن الثراء ليس إلا حالة طارئة، وأنه سريعاً ما يزول كما تزول سحب الخريف؟ إنه مثل الزوجة الخائنة، والخليلة اللعوب، والصديق غير الوفي، فقد يمكنك أن تستحوذ على ولائهم فترة من الزمن، لكنهم لن يلبثوا أن يقلبوا لك ظهر المجن! والرجل الذكي هو الذي يستخدم عقله في إتقان علم خاص، يستخدمه في إستعادة ثروته أو عشيقت، إذا ما شعر بحنين إلى أي منهما!»، فقال الأخ الأكبر: «ولكن، ما هو العلم الذي يستطيع المرء أن يتقنه؟».

فراحوا جميعاً يقدحون زناد فكرهم، حتى إهتدوا إلى فكرة لابأس بها: وهي أن يتجولوا في أرجاء الأرض، ليكتشف كل منهم الفن الذي يناسبه، ثم إتفقوا على مكان اللقاء، بعد زمن معين. وأخيراً إفترقوا وقد ولى كل منهم وجهه شطر جهة من الجهات. ومرت ستان إلتقوا بعدهما في المكان الذي سبق لهم أن إتفقوا عليه. وراح كل منهم يسأل الأخر عن الفن الذي أتقنه!.

فقال الأول: «لقد توصلت إلى علم أستطيع بواسطته –إذا ما وقعت في يدي قطعة من عظام أي نوع من الحيوانات– أن أغطيها باللحم»، وقال الثاني: «وأنا قد تعلمت كيف أغطي تلك العظمة ذات اللحم بالجلد والشعر»، وقال الثالث: «وأنا بوسعي أن أكمل هذه العظمة فأجعل منها جسم حيوان»، وقال الرابع: «أما أنا فأستطيع أن أنفخ الروح في هذا الجسم!».

ورغب كل من الأخوة الأربعة في إستعراض علمه، فتوغلوا في الغابة باحثين عن قطعة من العظم. وقد شاء القدر أن تكون قطعة العظم التي عثروا عليها هي ما تبقى من أسد نفق من فرط الشيخوخة. فإلتقطوها دون أن يعرفوا ذلك. وكساها أولهم باللحم، ثم كساها الثاني بالجلد والشعر، ثم غرس فيها الثالث الرأس والأطراف، ثم نفخ الرابع فيها الحياة. فإنتصب الأسد على أقدامه فاغراً فمه الرهيب، مكشراً عن أنيابه الفظيعة المتعطشة للدماء، ولم يلبث أن أبرز مخالبه الرهيبة وإنقض على خالقه، فقضى عليهم جميعاً!.

وهكذا لقى البرهميون الأربعة حتفهم. لأنه من ذا الذي يجد سعادة في أن يخلق شيئاً شريراً؟ ومن ثم ن العلم الذي نبذل في سبيله عرقاً غزيراً قد يصبح شيئاً عديم الجدوى، بل وفي معظم الأحيان أداة للتهلكة! فما لم تكن جذوره غائرة في باطن الأرض، وتروى بماء الذكاء، وتحاط بخندق الحكمة والفراسة، لن تحمل شجرة الجهد البشري أية ثمرة!».

***

وسأل الشيطان الملك قائلاً: «من من أولئك الأخوة يقع عليه الوزر الأكبر في خلق ذلك الأسد الذي أودى بحياتهم؟.. تذكر أن الشرط القديم مازال قائماً». وعندئذ حدد الملك نفسه قائلًا: «إن الشيطان سيختفي –مرة أخرى– بمجرد إنتهائي من حل هذا اللغز. ليكن، وليفعل ما يشاء، فلن يعجزني أن أقتنصه من جديد!».

ثم أجاب الشيطان قائلاً: «إن الشخص الوحيد الذي يقع عليه اللوم هو ذلك الذي بعث في الأسد الحياة. أما الآخرون فمن السهل أن نلتمس لهم العذر، لأنهم عندما مارسوا فنونهم، لم يكن بوسعهم التكهن بنوع هذا الحيوان. أما الأخير فقد شاهد هيكل الأسد كاملاً أمام عينيه، ومع ذلك نفخ فيه الحياة، لمجرد التباهي بفنه، والرغبة في إستعراض مهارته. ومن ثم فإن جريمة قتل الأربعة تقع على عائقه!».

وما أن سمع الشيطان الماكر جواب الملك حتى طار عن كتفه، عائداً –مرة أخرى– إلي «شجرة السيستو» فسعى الملك «تريفيكراماسينا» خلفه، ثم حمله على كتفه، متحدياً جميع الألاعيب والخدع التي إستعان بها الساحر. وفي أثناء الطريق قال له الشيطان: «إن مثابرتك في السعي وراء المستحيل، تجعل من العسير على المرء أن يقهرك. ومع ذلك فسأقص على مسامعك قصة مشوقة. أنصت: